لحظة قمر

فجأة ، رأيت القمر ..

وليست هناك خدعة ما فى التعبير ، فصحيح أن الإنسان أبدا لا يرى القمر فجأة ، فالقمر لا يظهر فجأة ، والشمس لا تشرق فجأة ، إذ المفاجأة دائما فى العمل غير المنتظر ، وشروق القمر وغياب الشمس أعمال لا مفاجأة فيها ولا جديد . ولكنك بالتأكيد ستحس بصدمتى وأنا أرى القمر فجأة فى شريحة من شرائح القاهرة ، شريحة تسمح لك برؤية السماء ، رأيت القمر عجيبا جدا .

الشريحة السماوية التى تبدى منها كانت مسافة بين عمارتين عاليتين من عمائر القاهرة ، عاليتان إلى درجة تكاد تحجب عنك رؤية السماء كلها . ولولا المسافة الكائنة بينهما ما سمحت لهذه الفرجة السماوية أن تظهر . وقد كان حريا بظهورها ألا يثير أدنى دهشة

أو ابتئاس لولا أن تلك الشريحة السماوية كانت تحوى ، فى هذا الوقت بالذات القمر ، القمر فى محاقه الأخير ، القمر حين يبدو الجزء المضىء منه مخنوقا بعض الشىء . من لون البدر يتنازل تدريجيا فاقدا لمعة فضيته ، ثم بياضه مكتسبا بعض الصفرة ، بعض العتمة ، حين يكاد نوره يصبح وكأنه نور قادم من عمود نور البلدية ، أو هو بالضبط كما بدا لى من خلال فرجة السماء هذه القائمة بين عمارتين ، شققهما العليا مفجرة الأضواء والضجيج ، بدا لى وكأنه النور القادم من شقة ثالثة مفروشة ومؤجرة للسياح ومن الباطن ، حتى لو كان هذا الباطن على تلك الدرجة الشاهقة من العلو ، فالمهم أن نور القمر المخنوق اختلط بأنوار الكهرباء الباذلة جهدها كى تلعلع وتبرق ومع ذلك فهى بالكاد تصل إلى مستوى نور القمر المخنوق هذا .

فجأة ، رأيت القمر ..

ويبدو أيضا أن المفاجأة كانت كاملة وكان من المستغرب تماما فى ظروف القاهرة تلك ، ظروف الخروج من المعركة والاستعداد الكامل المطلق لأية معركة مقبلة ، أن يكون هناك قمر ..

ربما نحن نسيناه تماما فى اختناقاتنا اليومية الصغيرة المستمرة المتكاثرة التى نغرق فيها وتغرقنا ، ومع هذا فمروض ونحن

غرق هكذا أن نفكر فى إنقاذ أنفسنا بل ونقوم بهذا الإنقاذ فعلا ، ويخيل لنا أن كل شيء قد انتهى إلى لا شيء مرة ، ومرة أخرى أدهى يخيل إلينا كما لو كان أى شيء قد استحال إلى كل شيء . وما بين اللاشيء وكل شيء رحنا نرقص . رقصا لا ضابط له ولا نغم ، نحن فيه على وجه الدقة كرة (بنج بونج) مضروبة مضروبة ، لكى تقتحم أرض الخصم ، لكى تدافع مضروبة ، من اليمين مضروبة ، من اليسار مضروبة ، لعبة التى نزاولها بمنتهى عدم الدهشة وبمنتهى الجدية والخطورة ، رقصة التفتت والتحلل إلى اللاشيئية لتصبح الكل شيئية .. أنستنا هذه الرقصة المحمومة ، ليس فقط أننا نرقص أو أننا أحياء ، ولكن يبدو وكأنها أنستنا أيضا أننا جزء من كون هائل الضخامة كبير ، عوالم أخرى ، شموس وأفلاك ومجرات ، حركة تاريخ ضاربة إلى أسحق بعد من الماضى وواضح أيضا إلى بعد فى المستقبل ..

أجل .. نسينا هذا كله . كل مراكز عقولنا محملة فوق طاقتها بأكوام من الأرقام والحسابات والديون والمطالب والاحتمالات وخراب البيوتات ، المركز الواحد أمامه طابور أفكار برمته ولا طابور الجمعية .

نسينا القمر ..

وفجأة ، رأيت القمر ..

مخنوقا لا يهم ، محمر الضوء كالحه لا يهم . شقة مفروشة بتليفون وحمامين وأنوار والعة مولعة ومجهزة إلى حد الصاجات لإحياء ليالى ألف ليلة بعشرات من الشهرزادات المنتظرات ، فقط ، تليفون ، وإذا الكل على واحدة ونص انضبط ، ومع كل واحدة ، يتخلخل تماما ويتفكك ، ومع كل نص ، فى ومضة يعود إلى الانضباط . شقة مفروشة باهرة الأضواء بين عمارتين لزوم السادة السياح ، ما عليك فقط إلا أن تشير ، مجرد تشير ، أو تفكر ، مجرد تفكر ، وإذا بجميع ما تحلم به يتحقق حتى لو الشقة فى القمر ، ولو القمر بين عمارتين تتلألأ شققهما بأنوار .

فجأة ، رأيت القمر ..

إذن فأنت القمر . تراك أين كنت أيها العربيد . ماذا ضيعك منا أو بالأصح ماذا ضيعنا منك ؟ أخيرا هللت ، وظهرت ، ورأيناك ؟!

صحيح لم تكن مفاجأة ، ولكنها كانت فى حد ذاتها حدثا .

لا أعرف ماذا حدث لى بالضبط حين رأيت ذلك المخنوق بالوهج القمرى ، ولكن الشىء المؤكد هو أننى أحسست بارتياح طاغ .

ـــ القيامة إذن لم تكن قد قامت .

والطريق الذى قطعناه طويل هذا صحيح .

متعبين ، مثخنين بالجراح والأنواء ، نحن .

ولكن ..

ها هو القمر .

ها هو وجهه يذكرك بإنسانيتك ، بأنك أنت مهما كنت ، ومهما كانت أوضاعك فأنت هو الإنسان ، أنت العظيم وسط هذا الكون الهائل الفراغ والظلام .

ذلك أن هذا النظام نفسه يؤكد أنك سيد هذا الكون ، أنك الوحيد بين مكوناته القادر أن تتحرك بإرادتك المستقلة وبحريتك فى أى اتجاه تختاره ، أنك السيد ، وكل ما تفعله عظمة الكون كلما عن لها أن تؤكد نفسها فإنها فى نفس الوقت تؤكد عظمتك ، أنت عظمة السيد

فجأة ، رأيت القمر ..

لا أعرف لماذا كانت بعض الديانات القبلية فى أمريكا الجنوبية وأفريقيا تخصص أياما محددة من العام تجتمع فيها القبيلة كلها ومن كافة الأنحاء ، فى مكان محدد عند هضبة جبلية ، هناك حيث يعسكر أهل

القبيلة ، ويقضون الوقت فى تأمل صامت للشمس وهى تشرق وتميل ثم تغيب ، والقمر وهو يعتلى قبة السماء ويتغير شكله وطبيعة نوره . لا أعرف ، ولكن الدارسين لهذه العبادات والقبائل يؤكدون على أن الغرض من هذا كان عمل نوع من الاتصال بين الإنسان والكون ، بحيث يبقى للإنسان ذلك الاتصال الكونى الروحى الذى يزوده بزاد يكفيه حتى حلول العام القادم .

لا أحد يعرف إذن ماذا يعنيه هذا الاتصال بين الإنسان والكون أو بالضبط ماذا يحدث للنفس البشرية إذا أجبرت على الابتعاد عن الظواهر الكونية أو إذا عاشت واختلطت بتلك الظواهر . لا أحد بالضبط يعرف ماذا يحدث للإنسان ولكن الذى لا شك فيه أن الإنسان (الكونى) أقوى بكثير من الإنسان ، بلا بعد كونى ، فالإنسان ذو البعد الكونى إنسان أقرب إلى حقيقته الإنسانية وطبعه البشرى ، أقرب إلى فطرته وأصالته ، أقرب إلى تفرده وتسيده من ذلك الذى غشى عليه فلم يعد يرى أمسه من غده ، أو ليله من نهاره .

فجأة ، رأيت القمر ..

رفرفت فى صدرى أجنحة عصفور زقزق فى قلبى كالزغرودة

وهفهف بجناحيه مرحبا ، وكأن الأمر عيد يهش له .

وبدا كما لو كنت أستعيد حياتى كلها فى شريط سريع أمام القمر أو بالضبط أمام لحظة القمر .

لا أعرف ، ولكن ، لأمر ما ، كل شىء يأخذ حجمه الطبيعى ، بل بدأت أنا نفسى آخذ عند نفسى حجمها الطبيعى ، أو ذلك الذى أبدو فيه أكبر من كل مشاكلى . تلك الصورة التقليدية التى يبدو فيها الإنسان ، ومهما كان التحدى القابع أمامه ، منتصرا ، أو على وجهه علامات الانتصار الأكيد .

فجأة ، رأيت القمر ..

فى فجوة سماوية بين عمارتين .. شقة مفروشة .. كون هائل فارغ ومروع ومظلم ومنظم .. عصفور يزقزق فى قلبى طربا . لحظة ..

وفجأة أيضا ، ضاع القمر ..

سدت السماء أدوار العمارات العالية .

أصبح لا معنى أن تنظر للسماء إذ لا سماء هناك .

عليك ، لكى تخطو ، فقط لكى تخطو ، أن تنظر إلى الأرض . وإلى الأرض تظل تنظر ، حتى لا تسقط ، تنظر حتى لا تسقط

فما أكثر الحفر فى شوارعنا هذه الأيام .

فجأة رأيت القمر ..

ولحظة واحدة عشتها معه .

وفجأة ، ضاع القمر بين عمارتين ، وضاع بصرى بحثا عن موطن قدم .

ولكن قلبى لا يزال يرفرف بالسعادة ، إذ يكفى أنى ، بعينى ، رأيت القمر الذى لا أحد يراه .